الصحافة الفلسطينيّة: بين زمن الأحلام الكبرى وزمن أوسلو

حسام شحادة

يكاد يكون الإعلام هو المسيطرَ الرئيسَ على المشهد الثقافيّ في الوقت الراهن. بل إنّنا نشهد انزياحًا في دوره الوظيفيّ: من منبرٍ واصفٍ للحدث، إلى مؤثّرٍ فيه، فإلى موجّهٍ له. ولئنْ قَدّمتْ ثورةُ المعلومات والاتصالات أشكالاً مبتكرةً من الإعلام، فإنّ الصحافة حافظتْ على شيءٍ من الخصوصيّة لكونها الركنَ العتيقَ الذي يلتفّ حوله رجالاتُ الفكر والثقافة.

مع انفتاح العالم، وتدويل خصوصيّة المجتمعات الثقافيّة والسياسيّة لتصبح شأنًا عامّاً، أخذت الصحافةُ في لعب دورٍ مزدوج: فبالإضافة إلى توجيه الرأي العامّ باتجاه التمهيد لشأنٍ تُراد موضعتُه في هذا المجتمع أو ذاك، باتت الصحافة تضطلع بعرض ردود الأفعال على تلك الموضعة ـ رفضًا أو قبولاً.

قبل ذلك بعقود، كانت الصحافة قد أسهمتْ في انتقال الجماعات البشريّة إلى طور المجتمعات السياسيّة حين ساهمتْ في تكوين الرأي العام الوطنيّ أو التعبير عن الشرائح والطبقات المشكّلة له. وهي نجحتْ في ذلك حين استطاعت إجراء تغيير على وظيفة الأخبار، إذ طوّرتها وعمّمتْها بمساعدة المطبعة حصل مثلُ ذلك في فلسطين بعد دخول أوّل مطبعةٍ عربيّةٍ إلى فلسطين عام ١٨٤٦، وهي مطبعةُ البطريركيّة الأرثوذكسيّة. ومع بداية تشكُّل الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، الذي غلب عليها طابعُ التحرّر من الاستبداد العثمانيّ، برزت الحاجةُ إلى الصحافة أداةً لا غنى عنها في إيصال النقاشات والآراء إلى أكبر شريحةٍ ممكنةٍ من الناس. هذا الاحتياج وجد مقوّماتِ دعمه في جملةٍ من الشروط الموضوعيّة، أبرزُها: ١ ـ الحملة الفرنسيّة التي حملت المطبعةَ العربيّةَ إلى مصر، وكانت في طليعةِ مَن رسم الخرائط العلميّة لفلسطين ودرسها جغرافيّاً. ٢ ـ حُكْم محمد علي لفلسطين (١٨٣٢ ـ ١٨٤١)؛ فقد كان لحكمه أثرٌ واضحٌ في التنظيم والأمن والنشاطات الثقافيّة كما ساهم نظامُ التعليم الذي أدخله ابنُه إبراهيم باشا، على الرغم من عمره القصير، في إحداث نهضةٍ ثقافيّةٍ كبيرة ٣ ـ فترة حُكْم الشيخ ظاهر العمر، وما لعبته من دور كبير في تطوير المدارس وإرسال البعثات إلى الدول الأوروبيّة. ٤ ـ البعثات الدينيّة والتبشيريّة، ودورها في استنهاض التعليم وترجمة الكتب الدينيّة والأدبيّة. هذا الأمر استجلب مطبعةَ الرّوم في القدس (تأسّستْ عام ١٨٥٢ وما تزال قائمةً حتى الآن) ساعدتْ هذه العوامل في شقّ طريق الصحافة الفلسطينيّة ويمكن تتبّعُ عدّة مراحل لنشوء الصحافة في فلسطين وتطوّرها.

المرحلة الأولى: النشأة في ظلّ الحكم العثمانيّ (١٨٧٦ ـ ١٩١٨). أسهمت الصحافة آنذاك في بلورة إرهاصات الوعي القوميّ والوطنيّ، الذي ساهم بدوره في انخراط المثقفين والسّاسة الفلسطينيين في الحراك داخل فلسطين ومناطقَ أخرى ضمن أراضي السلطنة العثمانيّة وقد قامت هذه النخبة بتأسيس الجمعيّات الثقافيّة والسياسيّة في الآستانة ودمشق وبيروت، وبتأسيس الجمعيّات الوطنيّة في فلسطين، بشكلٍ يشبه النمط الناشئ في المنطقة العربيّة عمومًا.

صدرت الصحيفة الرسميّة الأولى في فلسطين عام ١٨٧٦ باللغتين التركيّة والعربيّة تحت اسم **القدس الشريف** (توقّفتْ عن الظهور عام ١٩١٢، لتعاود الصدور بعد ذلك). وفي العام ١٨٧٦ صدرتْ صحيفة **الغزال**. وبحسب عدد من الباحثين العرب فإنّ صحيفة **النفير العثمانيّ** التي أنشأها إبراهيم ذكا في الإسكندريّة كانت من أقدم الصحف الفلسطينيّة العربيّة لأنها كانت أول جريدة عربيّة فلسطينيّة يصدرها فلسطينيّ باسمه، ثم انتقلت بعد ذلك إلى القدس عام ١٩٠٨ وأُطلق عليها اسم **النفير** [1] وبعد إعلان الدستور عام ١٩٠٨ الذي مكّن الصحفيين من الحصول على تراخيص لإصدار الصحف والمجلات، بلغ عددُ الصحف حتى عام ١٩١٤ حوالى ثلاثين صحيفة، نذكر منها على سبيل المثال: **الديك الصيّاح** (كانت تُكتب بخطّ اليد) و**الأحلام** و**البلبل** و**ناقة الله** و**بشير فلسطين** و**الإنصاف** و**النجاح** و**الدستور** و**الاعتدال** وظهرتْ عام ١٩١١ جريدة **فلسطين** وتُعتبر هذه الجريدة من أرقى الصحف في فلسطين على الإطلاق. وبحلول العام ١٩١٤ كانت

١ ـ أديب مروّة، **الصحافة العربيّة منذ نشأتها وتطوّرها** (بيروت دار مكتبة الحياة، ١٩٦١)، ص ١٧

الصحافة قد ضربتْ جذورَها في المجتمع الفلسطينيّ، فظهرت المجلات الأدبيّة مثل مجلة **النفائس العصرية**.

المرحلة الثانية: مرحلة الانتداب البريطانيّ (١٩١٨ ـ ١٩٤٨)، وهي مرحلةٌ تعبّر عن بداية التفاصل في الأداء عن الجسد العربيّ فبينما كانت الصُّحف العربيّة مهجوسةً بالتحرّر من المحتلّ الغربيّ، كان من أولويّات الصحافة الفلسطينيّة في ظلّ الانتداب البريطانيّ تنبيهُ العرب إلى خطر الهجرات اليهوديّة والاستيطان الصهيونيّ. وهذا الأمر ساهم إلى حدٍّ كبير في تطوير الحركة السياسيّة وبروز الزعامات والكتل كما أنه سهّل عقدَ المؤتمرات، واندلاعَ الانتفاضات الشعبيّة، التي رفضتْ وعدَ بلفور والهجرةَ اليهوديّة. وقد شهدت الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٤٨ صدورَ ٢٤١ دوريّة فلسطينيّة، منها ٤١ صحيفة ناطقة باللغة العربيّة [١] ومن صحف هذه المرحلة **سورية الجنوبيّة ومرآة الشرق** (صدرتا عام ١٩١٩). وفي عام ١٩٢٩ انتقل النشاطُ الصحفيّ من القدس إلى يافا، وتطوّرت الصحافةُ فيها حتى احتلّت مركزًا مهمّاً في ميدان الصحافة العربيّة.

المرحلة الثالثة: مرحلة خضوع الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة للحكمَيْن الأردنيّ والمصريّ (١٩٤٨ ـ ١٩٦٧). عام ١٩٤٨ تعرّض الشعبُ الفلسطينيّ لتطهيرٍ عرقيّ واسع أدّى إلى اقتلاع ما يقارب ٩٥٧ ألف عربي فلسطينيّ من ٧٨٪ من أرض فلسطين، وإلى تدمير المجتمع الفلسطينيّ وكلّ بناه الثقافيّة في هذه المساحة. كان طبيعيّاً، والحالُ هذه، أن يلحقَ الخرابُ بالصّحف التي كانت في الأراضي المحتلّة عام ٤٨ أما إلحاقُ الضفّة الغربيّة بالحكم الملكيّ في الأردن، ووضعُ قطاع غزّة تحت الوصاية المصريّة، فأدّيا إلى ارتباط الصحافة في الضفّة بالتشريعات الإعلاميّة الأردنيّة، وإلى ارتباط صحافة غزّة بإدارة الحاكم العسكريّ المصريّ. ونتيجةً لتغيّر جغرافيا الوطن، صُبغ ما تبقّى من الصحافة الفلسطينيّة في تلك المرحلة بالطابع الحكوميّ للجغرافيا الجديدة، ووجدتْ نفسَها تردّد ما تردّده الحكومةُ الأردنيّة أو المصريّة.

أثارت الصحافة الفلسطينيّة في المرحلة المصريّة – الأردنيّة العديدَ من المشكلات الفكريّة والأدبيّة، محورُها هموم جيل النكبة وآماله وهذا الأمر أعاد بلورةَ هويّةٍ خاصّةٍ للصحافة الفلسطينيّة، متمايزةٍ عن نظيراتها العربيّة إلى حدٍّ ما

المرحلة الرابعة: مرحلة الاحتلال الإسرائيليّ (١٩٦٧ ـ ١٩٩٤). بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، تبلورتْ في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة حركةٌ ثقافيّةٌ مناهضةٌ للاحتلال جسّدتْ محاولة النُّخب لملمةَ الهويّة الممزّقة من خلال الموقف الواضح الملتزم والكلمة الوطنيّة الواعية وقد شهدتْ هذه الحركة نهوضًا واسعًا في سبعينيّات القرن الماضي. فتأسّستْ دُور النشر، وتوسّعتْ دائرةُ المنشورات القصصيّة والروائيّة والتراثيّة، وصدرت الدوريّاتُ الأدبيّة والفكريّة والثقافيّة مثل: مجلة **فلسطين**، ومجلة **الطليعة** التي حاولت السلطاتُ الإسرائيلية وضعَ عقبات في وجهها (كان آخرها احتجاز محرِّرها بشير البرغوثي ثمانية أشهر)، **والبيادر**، **والشراع**، **وفتاة فلسطين**.[٢]

لعبت الصحافة الفلسطينيّة آنذاك دورًا كفاحيّاً مهمّاً في مواجهة المحتلّ، والتصدّي للحصار وحواجز الطرق وحظر التجوّل واستطاعت تعزيزَ الشخصيّة الوطنيّة الفلسطينيّة عبر ثقافةٍ نضاليّةٍ اتّسمتْ بطابعها المتفاعل مع نبض الناس والوجدان. فكان أن استهدفتْها سلطاتُ الاحتلال بالإغلاق، واعتقلت الصحفيين، وصادرت الكتبَ والمجلات، وشطبت الرقابةُ العسكريّةُ الكثيرَ من الأشعار والقصص. مثالُ ذلك اعتقالُ الكتّاب خليل سمارة وإسماعيل عجوة وغسان طهبوب ومحمد عميرة وصلاح سالم، وإبعادُ علي الخطيب ومحمود شقير.[٣] كما حاولت السلطاتُ الإسرائيليّة دمجَ ودعمَ بعض الفاعليّات الثقافيّة ضمن مساراتٍ تُحدّدها بنفسها لتُحْكم الرقابة والسيطرة عليها؛ وقد يكون من أوضح الأمثلة على هذا مشروع «صندوق الكتاب العربيّ» الذي بادرتْ إليه الهستدروت ـ حزب الماپاي ـ واحتضنتْه وألحقته بدار النشر العبريّة، إلا أنّ ذلك كان مشروطًا بانسجامه مع شروط النشر الخاصة بهذا الحزب (كان يشترط وقتها نمطًا هجينًا من الشعر).[٤]

لم تنجُ هذه الصحافة من بعض الإشكالات الداخليّة. لكنّ انتفاضة الحجارة (كانون الأول ١٩٨٧) أحدثتْ منعطفًا حاسمًا في واقع الثقافة والصحافة الفلسطينيّة، وكان لها الدورُ الرئيسُ في تغليب المصلحة العامّة على الخلافات الهامشيّة داخل روابط واتحادات الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين، وفي تطوّر المضامين الإبداعيّة وإرساء سياسة ثقافيّةٍ منحازةٍ إلى الجماهير وإلى مُثُل الحريّة والاستقلال، علاوةً على تعبئة الناس للانخراط في الانتفاضة رغم المصاعب والملاحقة القاسية

تزامنتْ حركةُ الصحافة الفلسطينيّة الداخليّة مع حركة الصحافة الفلسطينيّة في الشتات، والتي تبدّت عبر صدور دوريّات سعت إلى الإجابة عن أسئلة النكبة والإسهام في بلورة هويّة تتشبّث بالحقوق الوطنيّة. وقد عكست الصحافة الفلسطينيّة في الشتات وعيَ النخبة الفلسطينيّة، قبل أن تضيق مساحاتُ التفكير الحرّ المرتبطة بالقوى السياسيّة، وتتحوّلَ إلى لسان حالٍ عجزٍ أصابها مع تراجعها عن الكثير من الأفكار التي انطلقتْ منها. ومن صحف الشتات الفلسطيني: **الشرق الجديد** (لندن، ١٩٧٣)، و**شؤون الساعة** (بريطانيا، ١٩٧٩)، و**الأفق** (قبرص، ١٩٨١)، و**البلاد** (قبرص، ١٩٨٤).

---

١ ـ انظر: عايدة النجّار، **صحافة فلسطين والحركة الوطنيّة في نصف قرن ١٩٠٠ ـ ١٩٤٨** (بيروت المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ٢٠٠٥)

٢ ـ ٣ ـ الصحافة الفلسطينيّة في ظلّ الاحتلال (١٩٦٧-١٩٩٣) http://www.omferas.com/vb/showthread.php

٤ ـ أنطون شلحت، «في الثقافة والهويّة، مداخلة تأصيليّة،» مجلة الآداب، عدد ٧ ـ ٨، ٢٠٠٣، ص ٢٨

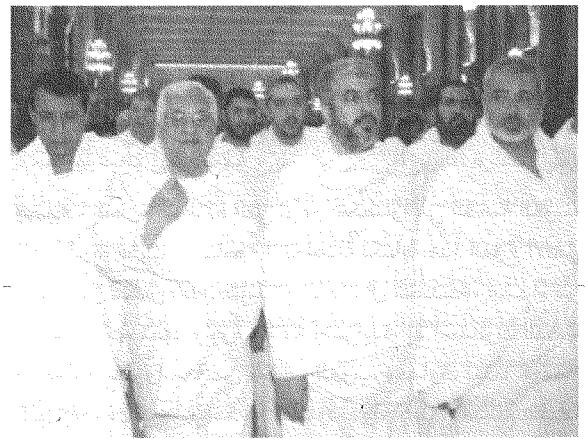

تراجعت الصحافة الفلسطينيّة عقب اتفاق أوسلو وبعد احتراب «فتح» و«حماس»

المرحلة الخامسة: مرحلة ما بعد أوسلو ودخول سلطة الحكم الذاتيّ المحدود (٤/٥/١٩٩٤ وحتى الآن).[1] في تسعينيّات القرن الماضي اعترى الوضعَ الصحافيَّ الفلسطينيَّ ضمورٌ بارزٌ بفعل الأحداث والتغيّرات الدوليّة، بكلّ مفاعيلها الإقليميّة والمحليّة. فبعد أن كانت الصحافة الفلسطينيّة تحمل لواءَ التحرّر والتصدّي للمخطّطات الاستعماريّة والصهيونيّة، تراجعتْ تراجعًا ملحوظًا عقب اتفاق أوسلو، وبشكلٍ أكثر تحديدًا بعد «عمليّة السور الواقي» واحتراب حركتيْ «فتح» و«حماس» (الذي انتهى بسيطرة الأولى على الضفة الغربيّة، والثانية على قطاع غزّة) فبعد أن كان الإعلام الفلسطينيّ أداةً لفضح جرائم الاحتلال، ارتدَّ لمصلحة المناكفات السياسيّة والردح المتبادل، ما أساء للقضيّة الفلسطينيّة، وأضعف دوره في التحفيز الكفاحيّ

بدأت الحركة الصحفيّة تصاغ في ظلّ السلطة بإعطاء تراخيص لإصدار صحف، وكان من أوائل الصحف ثلاثٌ صدرتْ عام ١٩٩٤ وهي **فلسطين** و**الحياة الجديدة** و**الوطن** (الأخيرة ناطقة باسم «حماس» وقد أغلقتها السلطة). كما صدرت عام ١٩٩٥ **الاستقلال** (الناطقة باسم حركة الجهاد الإسلاميّ)، و **البلاد** و**الأيّام**. وصدرت عن أجهزة السلطة عدة صحف ومجلات، منها **الأقصى** و**الساحل** و**الزيتونة** و**الرأي**. وعام ١٩٩٧ صدرت صحيفة **الرسالة**، الناطقة باسم حزب الخلاص

شهدت الضفّة والقطاع موجةً كبيرةً من الانتهاكات الصارخة لحريّة الصحافة والتعبير، ليس أقلّها اعتقالُ بعض الصحفيين والكتّاب وإغلاقُ بعض المؤسّسات الصحفيّة وتكرّس ما يمكن أن نسمّيه «الإعلام السلطويّ». فأقيمت الدوائرُ والمؤسّساتُ الإعلاميّة والثقافيّة الموالّة من قبل السلطة، وانخرط الصحفيون والكتّاب الفلسطينيون فيها. ونتيجةً لذلك طرأ تراجعٌ في ثقافة الالتزام بالمشروع الوطنيّ الجامع، لمصلحة ثقافة السلطة والحزبيّة الضيّقة، وتلاشت المؤسّساتُ الثقافيّة الوطنيّة المستقلّة، وتعمّقت البيروقراطيّة الثقافيّة، وسادت الخلافات تحت خيمة اتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين كما أنّ التّمسك بالسلطة - المحكومةِ بالسقف والصلاحيّات المنصوصِ عليها في اتفاقيّات أوسلو ومَلاحقها التي تتناقض مع طموحات الشعب الفلسطينيّ وتضحياته الكبرى - سخّر طاقتيْ «فتح» و«حماس» لخدمة هذه السلطة (سواء في رام الله أو غزّة). هكذا وُلد التناقضُ بين الثورة والسلطة وخرج عن نطاق السّيطرة. ووصل الصراع على تلك السلطة حدّ المساس بوحدة الشعب الفلسطينيّ وتهديد مشروعه الوطنيّ عبر رهاناتٍ أظهرتْ تجربةُ العشرين عامًا الأخيرة مدى عقمها.

في سبيل خاتمة

ساهمت الصحافة الفلسطينيّة بفاعليّة في بناءِ متخيّلٍ جمعيٍّ للشعب الفلسطينيّ حين فقد ترابطَه على جغرافيا وطنه. لكنّ ذلك لم يَجْرِ من دون انعكاس الشرط الموضوعيّ عليها. فتشرذمُ الشعب الفلسطينيّ، وطبيعةُ النخبة السياسيّة الجديدة، وسطوةُ النّظُم العربيّة، والصراعاتُ المركّبة التي دخلتها القوى السياسيّة، أرخت بظلالها الثقيلة على تلك الصحافة. ومن هذا المنطلق يصبح مشروعًا التحذيرُ من ضيق الأفق في استخدام النُّخَب السياسيّة للثقافة، وهو استخدامٌ آنيّ يُختزل في تبرير الخيارات السياسيّة الراهنة باسم «الواقعيّة» وبأنّ السياسة «فنُّ الممكن،» أو يُختزل في تبرير تمزيق الوحدة الوطنيّة باسم «المقاومة» و«الحفاظ على المصالح العليا.»

إنّ القبض على هذا المطبّ، مطبِّ الاستخدام السياسويّ الآنيّ الضيّق للثقافة الذي نال من تماسك الهويّة الثقافيّة الفلسطينيّة وصحافتها، هو دعوةٌ للتفكّر في صياغةٍ ثقافيّةٍ جديدة وهذه الصياغة تطمح إلى تجاوز التشرذم أولاً، والتصدّي لإشكالات الهويّة الفلسطينيّة في إطار الحراك العربيّ لإسقاط الأنظمة التي طالما تحدّدتْ هذه الهويّةُ بالعلاقة معها، ثانيًا كما أنها تطمح، قبل هذا وذاك، إلى التجسير بين هويّة فلسطين الأم والهويّات الفلسطينية المتلوّنة بحواضنها، في سبيل إطارٍ جامع.

دمشق

حسام شحادة

كاتب فلسطينيّ مقيم في سوريا.

١ - انظر د ماجد تريان، **بحث في الصحافة** (كليّة الإعلام، جامعة الأقصى، فلسطين)